المدرسة الخاتونية البرانية

بدمشق — ٣

الخطأ السادس[1]

يقول الأستاذ بالذيل ص ٢١١ (عن المدرسة) الخاتونية البرانية « انها كانت باقية الى زمن ابن كنان لأنه قال في « المروج السندسية بتاريخ الصالحية » ص ٢٧ « جامع الخاتونية فيه درس حديث في الأشهر الثلاثة » .

ثم ينقل عن العلموي (المؤرخ) أن أول من هدمها ونقل رخامها الى مدرسته سيباي. اه

وبعبارة أخرى أن هذه المدرسة كانت موجودة في عهد ابن كنان حتى هدمها سيباي فهل هذا صحيح ؟

اننا نعلم أن سيباي كان كافل الشام أي أميرها ونائبها من قبل دولة السلاطين المماليك وهو آخر كفالها حيث زالت هذه الدولة بهزيمة السلطان قانصوة الغوري وسقوط سوريا ومصر في يد السلطان سليم العثماني ٩٢١ / ٩٢٢ هـ .

وقد بنى سيباي مدرسته الشهيرة بباب الجابية بدمشق ٩١٥ هـ وهي التي نقل اليها آلة ورخام المدرسة الخاتونية البرانية بعد أن هدمها .

ونعلم أن العلموي الذي يروي هذه القصة توفي ٩٨١ هـ . وفي عهده كانت المدرسة مهدومة وان ابن كنان هو من رجال القرن الثاني عشر الهجري وقد توفي سنة ١١٥٣ هـ .

فكيف يصح في الأذهان ان تكون هذه المدرسة «باقية الى زمن ابن كنان » كما يقول الأستاذ أسعد أي الى منتصف القرن الثاني عشر الهجري مع انها هدمت قبل ذلك (في عهد سيباي) بأكثر من مائتي سنة ؟

وكيف يمكن أن يكون ابن كنان سابقاً لسيباي ؟

---

(١) ظهر الجزءان الأول والثاني من هذا البحث في عددي توفمبر وديسمبر الماضيين من المشرق ، في تحقيق مساجد دمشق وتعريف ابن الشحنة وتصحيح الأخطاء التي وقعت في كتاب « الدر المنضد في ذكر المساجد » الذي ألفه يوسف بن عبد الهادي ونشره الاستاذ أسعد طلس

ألم يكن في كل هذا ما يلفت نظر الأستاذ الى أن « جامع الخاتونية » الذي يتكلم عنه ابن كنان هو معهد آخر غير المدرسة الخاتونية البرانية» التي يعنيها العلوي ويروي قصة هدمها !

تصحيحات أخرى

الآن وقد انتهينا من اثبات أن مسجد تربة الخاتون بالجبل هو المسجد الجديد جنوبي الشركسية . فلننظر ماذا يقول الأستاذ أسعد عن هذا المسجد .

مما يؤسف له حقا إن هذا الكتاب الذي نصححه مشحون بالأخطاء بدرجة غير عادية بحيث يحار المرء هل يصحح التواريخ أو الأسماء أو المواقع أو عهود البناء . ؟ وهل يصحح المتن أو الحواشي أو الذيل ؟ . ان تعقب أخطاء الأستاذ أسعد واحصاءها وتصحيحها يستدعي عملاً ضخماً في حجم الكتاب نفسه إن لم يكن أكبر منه وهو واجب سنقوم به حتماً خدمة للعلم وغيرة منا على تراث مجيد اشتركت في تخليده هم أعاظم الرجال والنساء وعبقريات أهل العلم والفن والصناعة وجهود أجيال طويلة متعاقبة . فلا يصح أن يؤخذ على انه هزؤ أو ألاعيب أو تسلية وتزجية فراغ أو وسيلة للتعالم والادعاء والظهور .

أولا — يقول الأستاذ أسعد في المسجد رقم ٥٩ بالذيل صحيفة رقم ٢٠٤ « الجامع الجديد بالصالحية ... ... هو تربة السيدة عصمة الدين خاتون بنت معين الدين انر زوجة نورالدين ثم صلاح الدين أنشأتها سنة ٥٧٥ ثم وسعتها وعملت معها جامعاً ؟ . . — الخ . »

ولا ندري من أين أتى الأستاذ بهذا التاريخ فاللوحة التذكارية التي لا يزال منقوشاً بها اسم عصمة الدين خاتون والتي لا تزال موجودة بالواجهة الشرقية للجامع الجديد قد ذكر بها التاريخ سبع وسبعين وخمس مائة . والى القارىء نص هذا النقش التاريخي كما نقلناه ولدينا الآن مجموعتنا الخاصة طبعة منه بالحجم الطبيعي .

السطر الأول : بسم الله الرحمن الرحيم .

السطر الثاني : أمرت بانشاء هذه التربة المباركة المقبرة الى رحمة .

السطر الثالث : الله الراجية لرضوانه الخاتون الأجلة السيدة .

السطر الرابع : الكبيرة المالكة العادلة عصمة الدنيا والدين شرف .

السطر الخامس : الخواتين تاج نساء العالمين ابنة الشهيد السعيد .

السطر السادس : الغازي المجاهد معين الدين سيف اسلام .

السطر السابع : قدس الله روحه في شهور سنة سبع وسبعين وخمس مائة .

طول اللوحة ٨٢ × ٥٢ سنتمتر .

سعة السطر ٨ و ٦ سنتيمتر .

طول قائم حرف الالف بأول الكلمات كنموذج قياسي ٦ سنتيمتر في المتوسط .

نوع الكتابة : نسخ أيوبي .

فصحة التاريخ هي سنة ٥٧٧ لا سنة ٥٧٥ كما ذكر الأستاذ أسعد . وهذا هو تاريخ انشاء التربة كما يظهر ذلك من السطرين الثاني والسابع . أما تاريخ وفاة هذه السيدة ودفنها فيها فهو سنة ٥٨١ هـ . أي بعد انشائها بأربع سنوات .

* * *

ثانياً — وقد نقل الأستاذ أسعد النقش التاريخي الموجود على باب الجامع الجديد وذكر في صحيفة ٢٠٥ هكذا .

« بسم : أنشأ هذا الجامع المعمور بذكر الى (١) تعالى مما أنعم (٢) الله على عبده الفقير الى الله تعالى سليمان بن حسن العقيري (٣) التاجر تقرباً الى الله (٤) باريه الكريم وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي ابن التدمري في شهور سنة تسعين (٥) وسبعمائة غفر الله لهما » اهـ .

وتصحيحاً لقراءة الأستاذ أسعد نرى واجباً علينا أن نذكر هنا النص الصحيح لهذا النقش فقد شاهدناه في موضعه وأخذنا عنه طبعة بالحجم الاصلي هي الآن في مجموعتنا الخاصة بنقوش دمشق التاريخية الأثرية .

وهذا النقش سطران كبيران . عرض السطر ٢١ سم :

السطر الأول : أنشأ هذا الجامع المعمور بذكر الله تعالى مما أنعمه الله تعالى على عبده الفقير الى الله تعالى سليمان

السطر الثاني : ابن حسن العقري التاجر تقرباً الى ربه الكريم وذلك بتولي الفقير الى الله تعالى علي ابن التدمري في شهور سنة تسعه وسبعمئه غفر الله لها .

فالكلمات الواردة خطأ في قراءة الاستاذ أسعد هي :

بالسطر الأول ١ — بذكر الى	صحتها بذكر الله
« « ٢ — مما أنعم	« مما أنعمه
« الثاني ٣ — العقيري	« العقري أو العقري
« « ٤ — تقرباً الى الله باريه الكريم	« تقرباً الى ربه الكريم
« « ٥ — سنة تسعين وسبعمائة	« تسعة وسبعمئة

ولا ندري كيف ينفر الأستاذ أسعد عن التعيين هذا التاريخ ويذكره في آخر صحيفة رقم ٢٠٤ في عبارة نصها « وذلك بتولي ابن التدمري سنة ٧٠٩ » ثم يأتي هو بعد ذلك

فيقرأه في موضعه وينقله في كتابه بعد أربعة أسطر فقط في صحيفة ٢٠٥ ويقول انه سنة ٧٩٠ هـ .

والظاهر انه تسرّع في القراءة بدليل أخطائه الكثيرة فيها. ولعله أراد تصحيح عبارة النعيمي فوقع هو في الخطأ .

ونحن نلفت نظر القارىء للملاحظات الآتية :

١ — في كلمة ربه من عبارة تقرباً الى ربه الكريم نقلها هو باريه وحقيقة الباء والألف انها تكملة كلمة تقرباً ولا علاقة لها بكلمة ربه — فأضاف هو من عنده كلمة الله وكرر الباء والألف فصارت تقرباً الى الله باريه .

٢ — في كلمة العقيري نجد نقطتين إحداهما فوق الغين والثانية فوق القاف إذا كانت الكلمة الغفري فاذا اعتبرناها نقطتين للقاف كانت الكلمة العقري . ولا توجد نبرة لياء العقيري الوسطى، ولا نقطتان لها أسفل الكلمة . وانما توجد نقطتان فوق الراء وتحت الياء الاخيرة المنفصلة لأن هذه الياء مكتوبة فوق الراء .

وقد جرت العادة في أمثال هذه الياءات الأخيرة أن توضع تحتها نقطتان وفي هذا النقش نفسه نجد ذلك في كلمات بتولي وعلي والتدمري .

أما قراءة النعيمي لها بالعقيري وأخذ من أتى بعده بهذه القراءة من أمثال العلوي وسوفير فأساس الخطأ فيها قراءة النقش عن بعد وعدم دراسته بدقة كافية .

(انظر النعيمي ج ٢ ص ٤٥٠ ٤٥١ والعلوي ص ١٢٧ / ١٢٨ وسوفير المجلة الاسيوية ص ٢٣٦ / ٢٣٧ سبتمبر — اكتوبر ١٨٩٥

٣ — فيما يتعلق بالتاريخ وأنه « تسعة وسبعمئة » وليس تسعين وسبعمائة كما يقول الاستاذ أسعد

نقول أولا : أن الكلمة الأولى لا يمكن أن تكون تسعين لعدم وجود نبرة للياء ولا نقطتان لها من أسفل وكذلك لا توجد نقطة للنون اذا كانت الكلمة تسعين .

ثانياً — والموجود فعلاً تاء مربوطة أخيرة عليها نقطتان تجدهما أعلا حرف العين وهما كبيرتان وظاهرتان بوضوح تام .

ثالثاً — وكذلك هذه التاء المربوطة الأخيرة في « تسعة » تشبه التاء المربوطة في كلمتي سنة وسبعمئة . وكذا الهاء في كلمة الله مع امتدادها الى أسفل أكثر قليلا .

رابعاً — ان الكلمات المنتهية بحرف نون مثل ابن وحسن فيها النون على شكل قوس أقرب الى الاستدارة هكذا ابن . حسن فلو كانت الكلمة تسعين لكانت كتابة نونها

الأخيرة وفقاً للاسلوب الكتابي نفسه الذي اتبع في كتابة هاتين الكلمتين .

هذه هي البراهين المستمدة من دراسة حروف النقش ومقارنتها وزيادة في التأكيد وقطعاً لكل لبس ننقل هنا رواية شاهد عيان معاصر هو المؤرخ شمس الدين الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ . قال :

« توفيت (عصمة الدين خاتون) رحمها الله تعالى في ذي القعدة (سنة ٥٨١) هـ ودفنت بتربتها وبلغ السلطان (صلاح الدين الأيوبي) وفاتها وهو مريض بحران فتزايد مرضه وحزن عليها وتأسف وكان يصدر عن رأيها .

وفي زماننا وسعت تربتها وعملت جامعاً وأقيمت فيه الجمعة وغيرها . انتهى .

(أنظر التعميي باب المدرسة الخاتونية الجوانية بحلة حجر الذهب الدارس حـ ١ ص ٧٤٣)

فلا يمكن إذن أن يكون تاريخ ذلك سنة ٧٩٠ كما يريده الأستاذ أسعد بل هو سنة ٧٠٩ لأن الذهبي المتوفى سنة ٧٤٨ هـ يقول ان هذا التوسيع كان في زمانه وربما كان أحد المصلين بهذا الجامع عند تمام هذه العمارة .

وقد ذكرنا من قبل أن التتار وصاحب سيس شرعوا يوم السبت النصف من ربيع الآخر سنة ٦٩٩ هـ في نهب الصالحية ومسجد الأسدية ومسجد خاتون ودار الحديث الأشرفية (بالصالحية) الخ أنظر ابن كثير مجلد ١٤ ص ٨

وأشار المقريزي الى هذا الحادث في السلوك حـ أول ص ٨٩٢ بقوله « وكان سبب نهب الصالحية أن متملك سيس بذل فيها مالا عظيماً وكان قد قصد خراب دمشق عوضاً عن بلاده فتعصب الأمير قبجق ولم يمكنه من المدينة ورسم له بالصالحية فقصدها متملك سيس وأحرق المساجد والمدارس وسبى وقتل وأخرب الصالحية الخ »

ونتيجة ذلك أن هذا المسجد لم يحتاج للعمارة بعد خرابه في هذا الحادث فتم ذلك في سنة ٧٠٩ أي بعد عشر سنوات فقط من الحادث لا بعد تسعين سنة كما يريده الأستاذ أسعد

كلمة ختامية

ولا نريد أن نختم بحثنا دون أن نوجه هذه الكلمة الى الأستاذ . فقد جاء بصحيفة ١٨٧ في مقدمة « الذيل » الذي ألحقه بكتاب ابن عبد الهادي ما نصه : —

« هذا ذيل وتممته لكتاب « ثمار المقاصد » »

(١) أحصيت فيه مساجد دمشق الموجودة الى نهاية عام ١٣٦١ هـ (= ١٩٤٢ م)

(٢) وقد زرتها واحداً واحداً ووصفت منها وصفاً مطولاً ما كان جديراً به واختصرت

في وصف المساجد الحديثة وقليلة الشأن .

(٣) وقد حاولت تعيين زمن كل واحد معتمداً في ذلك اما على ما عثرت عليه من نصوص المصادر التاريخية ... واما على ما قرأته في جدرانها من كتابات ونقوش ... واما على طرز البناء وأسلوب عمرانه . وقد أعانني في هذه الناحية المهندس الأستاذ اكوشار ... الخ » اهـ .

ونقول اننا حاولنا أن نرى تحقيق ذلك جميعه في مسجد الطاتونية البرانية فلم نفلح بطائل بل لم نعرف السبب الذي من أجله ذكر هذا المسجد بالذيل لأنه لا وجود له بمدينة دمشق في نهاية عام ١٣٦١ هـ = ١٩٤٢ م » بل لم يكن موجوداً في القرن السابق ولا في الذي سبقه .

والأستاذ نفسه ينقل عن العلموي ان الطاتونية البرانية هدمها سيباي كاتل دمشق وأخذ رخامها وآلتها في بناء مدرسته . وقد حدث ذلك سنة ٩١٥ هـ . أي من نحو ٤٥٠ سنة .

وبما انه غير موجود فهو لا ينطبق عليه أي غرض من الأغراض التي ذكرها الأستاذ وأوضحناها أعلاه والتي من أجلها يصح أن يذكر بالذيل .

ونحن نسائل الأستاذ : ألم يكن الأفضل بدلاً من حشو « الذيل » بمساجد لا وجود لها ، أو مساجد تافهة لا أهمية دينية أو تاريخية أو أثرية أو فنية لها ، بل ان بعضها لا يصح أن يطلق عليه اسم مسجد لأنه لا ينتفع به للصلاة وهو أقرب الى الخربات أو الساحات المهملة . ألم يكن الأفضل أن يترجم في هذا الذيل لبعض المساجد ذات الأهمية التاريخية والفنية والأثرية التي تزدان بها مدينة دمشق من أمثال المدرسة الرشيدية بالميدان الفوقاني ، والمدرسة العادلية البرانية بالمهاجرين ، وقبة الحمراء بحادة المدارس ، والمدارس الشبلية والبدرية والحافظية بطريق الشبلية وعين الكرش وغيرها كثير أحصيناه وسنتكلم عنه في مقالتنا التالية وما ذكرنا هنا إلا القليل من المساجد ذات الأهمية التي لا تخفى على فطنة الأستاذ لما فيها من آيات الصناعة الأيوبية أو المملوكية والتي يعد اسقاطها من تثبت آثار دمشق ومساجدها جناية على تاريخ هذه المدينة التي عانت من ويلات التاريخ المتعاقبة ما أفقدها من كنوز الفنون والصناعات ما كانت جديرة أن تزهو به على الكثير من مدائن الدنيا .

لقد أزعجنا ما أخذناه على الأستاذ أسعد من أخطاء كثيرة جداً في نشر كتاب « ثمار المقاصد » والتذييل له . وقد صححنا العشرات منها بأبحاث مستوفاة توخينا فيها اظهار الحقيقة حسبما وسعته طاقتنا وسمح به وقتنا وكان رائدنا وسيظل دائماً التزام الخطة التي أخذنا بها أنفسنا وهي أن نقرن كل قول بالدليل عليه حتى تقوم الحجة ويتضح وجه الصواب . خدمة للعلم وإحياء لتاريخ هذه المدينة الزاهرة وبعث أمجادها الغابرة .

« القاهرة »

السيد محمد رجب

جزء ١ (٩) مجلد ١٠٨